



مدينة جِدي (المدينة التاريخية المندثرة)

على الساحل الشرقي لإفريقيا

قراءة في تاريخها وحضارتها في ضوء الأدلة الآثرية

أ.د. بطل شعبان محمد غرياني

أستاذ التاريخ الإسلامي - كلية الدراسات الإفريقية العليا - جامعة القاهرة

تعد المدن السواحيلية الواقعة على الساحل الشرقي لإفريقيا من أكثر الظواهر الحضارية إثارةً للاهتمام في تاريخ إفريقيا الإسلامي، إذ جمعت في تكوينها بين الموروث الإفريقي الأصيل والإرث العربي الإسلامي وشبكات التجارة الآسيوية المتشعبة، لتنتج نمطاً حضرياً فريداً لا نظير له في محيطه الجغرافي. وفي هذا الإطار، تحتل مدينة «جِدي» مكانةً استثنائية بوصفها نموذجاً تاريخياً للميناء السواحيلي الذي بلغ ذروة ازدهاره بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ثم آل إلى الانحسار والتخلي في ظروفٍ تتضافر فيها العوامل البيئية والضغط الخارجي.

غير أن المفارقة الأبرز التي تحيط بجيديد، وتزيدها غموضاً وحرصاً على النيش في تاريخها، هي أنها لم تُذكر في أي مصدر تاريخي معاصر لعصر ازدهارها، سواء كان عربياً أم برتغالياً أم أي مصدر آخر. فبينما دون الجغرافيون والمؤرخون المسلمون، أمثال المسعودي والإدريسي وياقوت الحموي وابن بطوطة، أوصافاً دقيقة لمدن الساحل كمقديشو ومالندي وممبسة وكلوة، فإن جيديد ظلت غائبة تماماً عن صفحاتهم. كذلك لم تسجل السجلات البرتغالية، رغم توثيقها الدقيق للمدن التي واجهتها خلال محاولات فرض سيطرتها على المحيط الهندي وبعض جهات الساحل الشرقي لإفريقيا في القرن السادس عشر، أي ذكر لهذه المدينة. هذا الصمت التاريخي المدوي جعل من جيديد «المدينة المجهولة» بامتياز، وكادت أن يطويها النسيان لولا أن شواهدا الأثرية الصامدة في عمق الغابة الاستوائية نطقت بما لم تتطرق به الكتب.

ورغم أن مدينة جيديد عانت من تهميش المصادر التاريخية؛ فإنها لم تكن يوماً مجهولة لدى السكان المحليين من شعب الجيرياما الذين لم يتوقفوا عن التفاعل مع أطلالها وغاباتها وأبارها عبر القرون. لكن هذا التفاعل المحلي لم يكن كافياً لوضعها على خريطة الحضارة العالمية. لقد أنقذتها فقط حفائر علماء الآثار الذين كشفوا نصوصها الحجرية والخرفية، فتحولت أطلالها إلى شاهد عيان يحفظ تفاصيل دقيقة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية في تلك الحقبة. وبهذا المعنى، فإن جيديد مدينة صامدة في المصادر، لكنها ناطقة بالشواهد.

لا تقتصر أهمية جيديد على كونها موقعاً أثرياً زاحراً بالشواهد المادية، بل إنها تمثل نافذة تاريخية شاهدة على منظومة التجارة في المحيط الهندي وطبيعة الصلات الاقتصادية والثقافية التي ربطت إفريقيا الشرقية بالعالم الإسلامي وآسيا. وقد كشفت أعمال التنقيب عن معطيات مهمة أعادت رسم صورة المدينة، وأضافت إلى فهمنا لأنماط التحضر الإسلامي

في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

وفي ضوء ما سبق، فإن المنهجية المفروضة علينا في إعداد هذه الدراسة هي الاعتماد على تقارير الحفائر الأثرية وتحليل معطياتها؛ لرسم صورة لتاريخ وحضارة مدينة جيديد، فهذه الدراسة تستند بشكل أساسي إلى التقارير الأثرية المنشورة والحفائر الميدانية التي أُجريت في موقع جيديد على مدى سبعة عقود، إذ تشكل هذه التقارير المادة الخام التي لا غنى عنها لفهم تاريخ المدينة وحضارتها.

فقد بدأ عالم الآثار البريطاني جيمس كيركمان James Kirkman حفائره في جيديد عام ١٩٤٨م، ليكون أول من طبق علم الآثار التاريخي على الساحل الشرقي لإفريقيا بطريقة نظامية. قاد كيركمان حفائر استمرت حتى عام ١٩٥٨م، كشف خلالها عن المسجد الكبير، والقصر، والعديد من المنازل الحجرية، وأصدر كتباً ومقالات علمية رائدة، أبرزها كتابه The Arab City of Gedi، الذي أسس لأول تسلسل زمني للموقع. وعلى الرغم من أن تفسيرات كيركمان حملت تأكيداً مفرطاً على الطابع «العربي» للحضارة السواحلية - وهو ما نقدته لاحقاً بعض الدراسات - فإن أعماله تظل الركيزة الأساسية التي بُنيت عليها كل الأبحاث اللاحقة.

بعد توقف دام أربعة عقود تقريباً، استأنف عالم الآثار الفرنسي ستيفن برادينز Stéphane Pradines التنقيب في جيديد عام ١٩٩٩م، متبوعاً بمواسم ميدانية في أعوام ٢٠٠١، ٢٠٠٢، و٢٠٠٣م. لم يقتصر عمل برادينز على إعادة قراءة ما اكتشفه كيركمان، بل مضى إلى أبعد من ذلك بكثير من خلال: التنقيب في مناطق أهمها كيركمان، ولا سيما الجزء الشمالي الشرقي من الموقع، حيث كشف عن مسجد جامع كبير جديد يعود للقرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وإجراء مجازات استكشافية في الزوايا المنسية مثل «الزاوية المسدودة» جنوب غرب المدينة ومنطقة النفايات، واعتماد التأريخ بالكربون

السابع عشر الميلادي، مروراً بذروة ازدهارها كدولة مدينة سواحيلية مزدهرة.

وسوف تسعى هذه الدراسة إلى تناول مدينة جيدي من زوايا متعددة متكاملة: الموقع الجغرافي وأثره في نشأة المدينة وازدهارها، والتطور الحضري والمعماري عبر مراحلها المتعاقبة، والأنشطة الاقتصادية في جيدي ودور التجارة الدولية في بناء ثروة المدينة وهويتها الحضارية، والقيمة الرمزية للخزف الآسيوي المستورد في الحياة الاجتماعية والدينية السواحيلية، والمجتمع السواحيلي في جيدي من خلال المكتشفات الأثرية، وأخيراً العوامل المتضاربة التي أفضت إلى تراجع المدينة واندثارها وهجرها.

أولاً: تطور المدن السواحيلية:

قبل الحديث عن جيدي؛ من الأحرى فهم السياق الأشمل الذي نشأت فيه المدينة؛ فهي وليدة منظومة حضارية متكاملة عُرِفَت بالحضارة السواحيلية؛ تلك الحضارة التي امتدت جغرافياً على شريط ساحلي ضيق يبلغ طوله قرابة ألفين وخمسمائة كيلومتر، من مقديشو في الصومال شمالاً إلى خليج سوفالة في موزمبيق جنوباً، شاملةً جزر القمر وشمال مدغشقر، ومتوغلةً في المناطق الداخلية المرتبطة بالشواطئ عبر شبكة الأنهار وطرق القوافل^(١).

وقد قسّم الجغرافيون العرب هذا الشريط الساحلي- الذي أطلقوا عليه «بر الزنج»، وأطلقوا على الجزء المواجه له من المحيط الهندي اسم «بحر الزنج»^(٢)- إلى أربع مناطق: بلاد البربر، وبلاد

المشع لتحديد تواريخ دقيقة للطبقات الأثرية، وإعادة تفسير التخطيط الحضري على ضوء مفهوم «التراتب الطبقي الأفقي» الذي ميز بين المدينة القديمة (القرون ٥-٨هـ/١١-١٤م) والمدينة الحديثة (القرن ٩هـ/١٥م وما بعده)، وتقديم قراءة جديدة لاتجاه المساجد ودلالاته المذهبية. تُعدّ تقارير برادينز المنشورة في بعض الدوريات، وكتابه- Historic Mosques in Sub-Saharan Africa، هي المرجع الأحدث والأشمل لفهم تطور جيدي.

أما قيصر بيتا Caesar Bita -عالم الآثار الكيني والمشرّف على المتاحف الوطنية في كينيا- فقد قاد بالتعاون مع ويس فورسيث Wes Forsythe مشروع «اكتشافات في خليج ميديا» Mida Creek Project بين عامي ٢٠١٨ و ٢٠٢١م. وركز هذا المشروع على المسح الأثري للمنطقة الساحلية حول الخليج، بهدف فهم العلاقة بين جيدي والمحيط الهندي. ومن خلال مسح حوالي ٢٠ كيلومتراً من الشاطئ، تمكن بيتا وفريقه من تحديد مواقع مستوطنات ساحلية معاصرة لجيدي، أبرزها موقع شافيسي Shavisi الذي ضم مسجداً وبنياً وتلال منازل، ليقدّموا بذلك إجابة مقنعة عن اللغز الذي حير الباحثين طويلاً: كيف وصلت البضائع إلى جيدي رغم بعدها عن البحر؟ وكانت الإجابة أن خليج ميديا كان الميناء الخارجي، وشافيسي محطته الوسيطة. كما سجل الفريق رسومات قوارب منقوشة على جدران كيليبوا وجيدي، وسلط الضوء على موارد الخليج (كأخشاب المانجروف المصدرة إلى الخليج العربي) ودورها في دعم اقتصاد المدينة.

هكذا، تتكامل حفائر كيركمان (مرحلة التأسيس والتسلسل الزمني)، مع حفائر برادينز (مرحلة إعادة التفسير والكشف عن المراحل المبكرة والتحويلات المذهبية)، مع حفائر بيتا (مرحلة فهم المشهد الطبيعي والروابط الساحلية)، لتقديم صورة شمولية دقيقة عن مدينة جيدي، من نشأتها الأولى كقرية طينية إلى هجرها النهائي في مطلع القرن الحادي عشر الهجري/

(١) Pradines, Stéphane: Islamic Archaeology in the Comoros: The Swahili and the Rock Crystal Trade with the Abbasid and Fatimid Caliphates, Journal of Islamic Archaeology, Vol.6, No.1, 2019, p.110

(٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعته كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥، (ج ١، ص ٨٤، ٨٥)؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧، (ج ٤، ص ٣٩٧)؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار

الزنج^(١)، الواقعة بين نهر شيبلي وجزيرة زنجبار، وبلاد السوفالة (أرض سوفالة) «سوفالة الذهب»^(٢)، وهي المنطقة الواقعة بين مصبات نهري زامبيزي وليمبويو، و«الواق واق»، وهي أرض تتألف من جزر القمر وجزيرة مدغشقر الكبيرة.

أما من ناحية أصل الكلمة، فكلمة سواحيلي تعني «أهل الساحل»، وهي الكلمة العربية التي تعني «الشاطئ». ويعود تاريخ هذه التسمية إلى الفترة الاستعمارية وتحديداً القرن التاسع عشر الميلادي، بينما في واقع الأمر: فضل الجغرافيون والرحالة المسلمون (المسعودي، والإدريسي، وياقوت الحموي، وابن بطوطة) استخدام مصطلح بر الزنج، وتسمية «الزنج» هنا لا تشير فقط إلى سكان سواحل شرقي إفريقيا، ولكن أيضاً إلى الأشخاص ذوي البشرة الداكنة بشكل عام^(٣).

أسهمت عوامل جغرافية متعددة في ازدهار المدن السواحيلية، لعل أهمها موقعها في مصبات الأنهار الكبرى التي وفرت لها ثنائية إستراتيجية نادرة: الوصول إلى ثروات المناطق الداخلية من جهة، والانفتاح على التجارة البحرية عبر المحيط الهندي من جهة أخرى. ولكل مدينة سواحيلية بصمتها المعمارية المميزة التي تجمع بين مسجد الجمعة

بوصفه مركزاً دينياً واجتماعياً، والمباني الحجرية التي تُشير إلى حضور الثروة والسلطة، والمقابر التي تعكس التراتبية الاجتماعية، والسوق والميناء بوصفهما أساس الحياة الاقتصادية. وكان الميناء حاسماً في هذه المعادلة لكونه المدخل الذي تصل عبره البضائع وتغادر وتُستوفى منه الضرائب وتُجرى فيه صفقات التبادل.

ثانياً: جيدي الموقع والتأسيس:

تقع أطلال جيدي (انظر: الشكل رقم ٢) على بُعد ستة عشر كيلومتراً جنوب مالندي على الساحل الكيني (انظر: الشكل رقم ١)، وهو موقع يجمع بين خصائص إستراتيجية وجغرافية جعلت منه بيئة ملائمة لنشوء مدينة سواحيلية بامتياز: فالمدينة تقع عند مصب نهر ساباكي على بُعد سبعة كيلومترات من الساحل، وهذا التباعد عن خط الساحل المباشر لم يكن مجرد صدفة بل خياراً إستراتيجياً واع وفر للمدينة حماية من الغارات المباشرة التي كان يُشنها قراصنة البحر أو غزاة السواحل. بيد أن بُعد جيدي عن الشاطئ لم يحل دون وصولها إلى البحر: إذ كان المصب الذي تقع عنده يؤدي مهمة الربط الحيوي بين المدينة والمحيط، ففي نمط معماري وجغرافي استثمره بناؤها استثماراً بالغ الذكاء. كما أتاح هذا الموقع ثلاث ميزات نادرة الاجتماع في آن واحد، هي: الوصول إلى ثروات المناطق الداخلية على ضفاف النهر، والاتصال بشبكات التجارة البحرية عبر المحيط الهندي، والتخفي عن أعين المعتدين المحتملين^(٤).

العباد، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٤٤؛ إبراهيم عبد المنعم سلامة: عمان معبراً لتجار الأندلس وعلمائها إلى بلاد فارس وشرق أفريقيا (٢-٣-١١هـ/٩-١١م)، منشورات وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ومؤسسة الانتشار العربي، لبنان، ٢٠١٥، ص ١١٨.

(١) ياقوت الحموي: مصدر سابق، المجلد الرابع، ص ٣٩٧؛ ابن سياهي زادة: أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، حققه المهدي الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٥٣١؛ ابن بطوطة: الرحلة، (ج ٢، ص ١١٤).

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ، (ج ٢، ص ١١٤، ١٢١).

(٣) Pradines, Stéphane: Op.cit, p.110.

(٤) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine La Céramique Chinoise en Afrique Orientale, Symbole du pouvoir des Marchands Swahilis, in: Chabanne, Laure, Shimizu, Christine, Dupoizat, Marie-France, Pradines, Stéphane "L'odyssée de la porcelaine chinoise", 2003, p.36.

الشكل رقم (١): خريطة توضح موقع جيدي^(١)؛



الشكل رقم (٢): صورة لأطلال جيدي^(٢)؛



قدر من الحماية والحصانة الطبيعية^(٣). أما مدينة كلوة Kilwa فقد استمدت حمايتها وحصانتها من وقوعها على بُحيرات ورمال متحركة تعزلها عن البر الرئيسي^(٤). وبفضل هذا يمكن اعتبار الواحدة من تلك المدن «دولة مدينة» خاصةً مع قمة الازدهار الذي وصلت إليه مطلع القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ولا سيما مدن مقديشو، وبات، ولامو، وماليندي، وجيدي، وممبسة، وزنجبار، وكلوة. وشهدت هذه المدن تطوراً وازدهاراً ملحوظاً بفضل التافس السياسي والتجاري بدافع السيطرة على التجارة البحرية.

وفيما يتعلق بتاريخ تأسيس جيدي، فقد كشفت أعمال التنقيب الحديثة التي استأنفها ستيفن برادينز عام ١٩٩٩م أن جيدي يعود تأسيسها إلى العقد الأخير من النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، فخلال الفترة بين عامي (٤٤٢-٧٩٢هـ/ ١٠٥٠-١٣٩٠م) أسست أول قرية وهي تقع شمال الآثار الحالية. وقد كشفت الطبقات الجيولوجية الأعمق عن عدم وجود منازل حجرية خلال تلك الحقبة، بل أكواخ من الطين والخشب، وجدران طينية من اللبن. وقد أتى اللهب على بعض هذه الجدران لاحقاً، فترك طبقة من الطين المشوي ليظل شاهداً على تلك القرية الأولى^(٥). وسرعان ما تطورت هذه القرية إلى تجمع سكاني أكبر خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأنشئ بها مكان للعبادة ومدافن في الوسط. واستمرت جيدي في النمو حتى وصلت إلى مرتبة المدينة، وتم بناء مسجد كبير بطول ٢٦ متراً خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وفي بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي،

وهذا النمط للموقع الجغرافي الذي اختير بعناية تكرر في المدن السواحيلية الكبرى؛ فأونجوانا Ungwana كانت عند مصب نهر تانا، ومقديشو على اتصال بنهر شبيلي، فيما أُسست مدن أخرى مثل تاكوا Takwa وبات Pate في غابات المانجروف بغرض التمتع بأكبر

(٣) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.35

(٤) <https://museums.or.ke/gede-museum>

(٥) Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches archéologiques sur le site de Gedi (Kenya, Mission de Juillet-Août 1999, NYAME AKUMA, No. 53, JUNE 2000, p.25

(١) Pradines, Stéphane: Le mihrâb swahili: l'évolution d'une architecture islamique en Afrique subsaharienne, Annales islamologiques, No.37, 2003, p.368

(٢) <https://thinkafrica.net/running-water-in-the-14th-century-gedi-kenya>

اتجاه مكة الصحيح كان نتيجة جهل جغرافي لدى بنائي المساجد الأوائل. لكن برادينز يرفض هذا التفسير رفضاً علمياً مستنداً إلى مقارنة أوسع؛ فالحالة لا تقتصر على شانجا كما ظن هورتون، بل تشمل المسجدين الكبيرين في جيدي وماندا معاً، وهو نمط يدل على قصد لا على جهل. ويذهب برادينز إلى أن بنائي هذه المساجد الأولى كانوا من أصل عرقي ومذهبي مختلف؛ وتحديداً من شيعة الخليج العربي وسواحل الهند، ولديهم حساب مختلف لاتجاه القبلة وفق مذهبهم^(٤). ثم في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي حلت موجة هجرات سنية جديدة قادمة في معظمها من حضرموت جنوب الجزيرة العربية، فصححت اتجاه القبلة في مساجدها الجديدة^(٥). ونحن بدورنا نتفق مع برادينز في استنتاجه، ونقدم دليلاً آخر على صحة هذا الاستنتاج، وهو العثور على مسجد شيرازي في دوموني بجزيرة أنجوان في جزر القمر بنفس الاتجاه شمال-شمال غرب، وهذا المسجد مؤرخ بالقرنين (٥-٦هـ/ ١١-١٢م)^(٦). وهكذا صار تحول محور المساجد (لاختلاف تحديد اتجاه القبلة حسب الوسائل المتاحة وقتها) في جيدي شاهداً مادياً واقعياً على تحول مذهبي وسكاني عميق.

ثالثاً: مراحل البناء والتطور المعماري لمدينة جيدي؛

إن أكثر ما يُجسّد عمق التاريخ المعماري خاصةً

تم نقل المركز الحضري إلى الجنوب الغربي. وتم تشييد مسجد كبير وقصر جديد (انظر: الشكل رقم ٣) في وسط محيط محمي بسور حجري^(١).

الشكل رقم (٣): قصر جيدي^(٢)؛



وأول مسجد يمكن تحديده في جيدي يُورّخ بين عامي (٤٩٣-٥٧٥هـ/ ١١٠٠-١١٨٠م)، وقد محاه مسجد لاحق بالكامل، فلم يبقَ منه إلا بعض الجدران وأرضية جصية متجهة نحو مكة المكرمة، ومنطقة وضوء مزدانة بعروق مرجانية في جنوبه الغربي. غير أن المهم هنا أن اتجاه هذا المسجد كان شمال-شمال غرب^(٣)، وهو التوجه الذي يميز المساجد الشيرازية المبكرة في المنطقة السواحلية كلها، ولا سيما في أرخبيل لامو من شانجا إلى ماندا. وهذا التفصيل التقني الذي قد يبدو صغيراً ينطوي في حقيقته على دلالة حضارية بالغة؛ فقد اعتقد عالم الآثار البريطاني مارك هورتون Mark Horton أن هذا التوجه المائل عن

(٤) Ibid, p.230.

(٥) Pradines, Stéphane: Le mihrāb swahili, pp.358, 359.

(٦) Wright, Henry: Early Islam, Oceanic trade and town development on Nzwani: The Comorian archipelago in the XIth-XVth centuries AD, Azania: Archaeological Research in Africa, Vol.27, No.1, 1992, P.95; Robineau, Claude: L'Islam au Comores Une étude d'histoire culturelle de l'île d'Anjouan, Revue de Madagascar, (35 n.s.), 1966, p.67.

بطل شعبان محمد: تاريخ جزر القمر وحضارتها خلال القرون الستة الأولى للهجرة، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب- جامعة المنيا، العدد ٧١، يناير ٢٠٢٢، ص ٢١٩، ص ٢١٢.

(١) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.37.

(٢) The black history man: the lost cities and amazing heritage of Kenya, Reklaw education limited, p.24.

(٣) Pradines, Stéphane: Historic Mosques in Sub-Saharan Africa From Timbuktu to Zanzibar, Brill, Leiden, Netherlands, 2022, p.227.

أنه يفوق المسجد الذي اكتشفه كيركمان بستة أمتار^(٤). وأكد التأريخ بالكربون ١٤ المشع على عينات من جدار القبلة أن بناءه يعود إلى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وقد مر هذا المسجد بثلاث مراحل متتالية: بُني بين عامي (٦٩٩-٧٤٠هـ/ ١٣٠٠-١٣٤٠م)، ثم أُعيد تنظيمه بين عامي (٧٤٠-٧٨١هـ/ ١٣٤٠-١٣٨٠م)، وأُعيدت هيكلته هيكله أخيرة بين عامي (٧٨١-٨٠٣هـ/ ١٣٨٠-١٤٠٠م)، ثم أهمل بعدها^(٥). ويبرز محراب هذا المسجد (انظر: الشكل رقم ٤) كتفصيل معماري استثنائي؛ إذ يشكل نتوءاً خارجياً مربعاً بعمق مائة وأربعة وثمانين سنتيمتراً خارج جدار القبلة^(٦).

الشكل رقم (٤): محراب المسجد الكبير في جدي (ق ٨-١٤هـ/ ١٠٥-١٤٠م)^(٧)؛



14. Groupe 4, Gedi, Kenya.

Kirkman, J: Men and monuments on the East African coast, Lutterworth Press, London, 1964, P.107; Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.255

Pradines, Stéphane: Historic Mosques, (٥) pp.255, 257

Pradines, Stéphane: Le mihrâb swahili, (٦) pp.358, 359

Ibid, p.378 (٧)

والحضاري عامةً لمدينة جدي، هو اكتشاف أن ما يبدو اليوم موقعاً لمسجد واحد يخفي في باطنه بقايا ثلاثة مساجد كبرى بُني كلٌ منها فوق سابقه بعد هدمه.

يعود (المسجد الأول) إلى الفترة بين عامي (٤٩٣-٥٧٥هـ/ ١١٠٠-١١٨٠م)، وأزيل هذا المسجد كلياً حين شُيّد مسجد جديد في القرن الرابع عشر فوقه. كل ما تبقى منه بعض الجدران وأرضية جصية موجهة نحو مكة ومنطقة وضوء مرجانية في جهته الغربية^(١).

ثم بُني (المسجد الثاني) بين عامي (٥٩٦-٦٢٧هـ/ ١٢٠٠-١٢٣٠م) فوق الأول بعد هدمه، بطول عشرة أمتار، محافظاً على التوجه ذاته شمال-شمال غرب. وقد أُعيد استخدام جدار قبلته كأساس لأعمدة المسجد اللاحق، ولم يبقَ منه إلا جدار شمالي-جنوبي وأجزاء من أرضيات الجص. وكانت قبور القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي المحيطة بهذا المسجد تحوي أواني يمنية سوداء وصفراء وطاسة فارسية كاشانية، وهي أولى الشواهد المادية الصريحة على اندراج جدي في شبكة التجارة الإسلامية الكبرى. وفي مرحلة ثانية بين عامي (٦٢٧-٦٧٨هـ/ ١٢٤٠-١٢٨٠م) جُدد هذا المسجد، قبل أن يُهدم كلياً ويُغطى بمصطبة طينية ضخمة أُعدت أساساً للمسجد الجامع الكبير (المسجد الثالث) الذي أنشئ في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي^(٢).

(١) المسجد الجامع الكبير الأول:

بين عامي ١٩٩٩ و ٢٠٠٣م قاد برادينز تنقيبات في الجزء الشمالي الشرقي من الموقع، خارج الأسوار الرئيسية^(٣)، فكتشف عن مسجد جامع كبير لم يكن معروفاً من قبل، يسبق زمنياً المسجد الذي درسه جيمس كيركمان في خمسينيات القرن العشرين. كان هذا المسجد يمتد بطول ستة وعشرين متراً من الشمال إلى الجنوب وخمسة وعشرين متراً من الشرق إلى الغرب، أي

(١) Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.227

(٢) Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.229

(٣) Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches archéologiques sur le site de Gedi, p.24

سياقه الإقليمي فيجد أن أبعاده تكاد تتطابق مع مسجد مدينة كلوة الجديد في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي الذي بلغ طوله ستة وعشرين متراً وسبعة ملليمترات. ويتشابه أيضاً مع المسجد الكبير في جزيرة ماندا بأرخبيل لامو من حيث الحجم والموقع في النسيج العمراني، إذ كلتا المدينتين تضمان مسجدين كبيرين، أحدهما في الشمال الشرقي من الموقع القديم والآخر في مركز المدينة المحصنة.^(٥)

٢) المسجد الجامع الثاني كدلالة على التحول

الديني والسياسي في مدينة جيدي:

بُني المسجد الجامع الثاني في جيدي خلال النصف الأول من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي؛ للاحتفال بإعادة تأسيس مركز المدينة الجديد. والمفارقة اللافتة أن هذا المسجد الجديد كان أصغر من سابقه، وهو ما يستدعي التأويل؛ فلو كانت الحاجة إلى مساحة أكبر هي الدافع لبُني أكبر من سابقه، ولو كانت هناك أسباب إنشائية هي المسوغ لرُمِّم القديم، لكن المسجد القديم كانت أساساته متينة، ومساحته تستوعب كل المصلين. يخلص برادينز إلى أن الأمر كان تغييراً دينياً بامتياز، مرتبطاً بوصول سكان جدد إلى جيدي في القرن الرابع عشر أحدثوا تحولاً مذهبياً من الشيعة إلى السنة أوجب بناء مركز ديني جديد يعكس هويتهم.^(٦)

وتبرهن الفوارق المعمارية بين المسجدين على رجاحة هذا التفسير؛ ففي مسجد القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وُضع عمود مقابل حَنِيَّة المحراب، وأُقيم منبر مبني بالأحجار على يمينه، وهو ما لم يكن موجوداً في مسجد القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي الذي كان محرابه مكشوقاً للجميع من دون أي حاجز أو منبر حجري.^(٧) وقد جُدد المسجد

ولم يُعثر على منبر ثابت في هذا المسجد^(٨)، مما يرجح أن المنبر كان هيكلاً خشبياً خفيفاً قابلاً للنقل. وكُشف عن مستويين لأرضية جصية داخله^(٩). أما الدفن الملتصق بجانب المحراب فيُرجح برادينز أنه قبر شخصية دينية أو سياسية بارزة، كما أن قبراً آخر نشره كيركمان يحمل نقشاً مؤرخاً بسنة ٨٠٢ هـ/ ١٣٩٩ م.^(١٠) (انظر: الشكل رقم ٥).

الشكل رقم (٥): قبر مكتشف في موقع جيدي مؤرخ بسنة

٨٠٢ هـ/ ١٣٩٩ م.^(١١)



وعلى صعيد المقارنة، يضع برادينز هذا المسجد في

(١) Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.260

(٢) Ibid, p.229

(٣) Ibid, p.257

(٤) The black history man, p.13

(٥) Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.258

(٦) Ibid, p.260

(٧) Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.260

الشكل رقم (٦): المنبر ذو الثلاث درجات على يمين محراب مسجد الجمعة في جيدي^(٨)؛



٣) مساجد الأحياء الستة دلالة على التنوع الاجتماعي:

لا تكتمل صورة جيدي المعمارية دون النظر في مساجد أحيائها الستة التي أطلق عليها كيركان أسماء وصفية لا تزال تُعرف بها: مسجد القناة الطويلة، ومسجد الأروقة الثلاثة، والمسجد الصغير، ومسجد التابوت، ومسجد بين الأسوار، والمسجد الجنائزي على السور الجنوبي^(٩). تعطي هذه المساجد مؤشراً على تقسيم المدينة إلى قطاعات كبيرة. كان للأحياء قيمة قوية في الثقافة والهوية السواحيلية، غالباً ما كانت مرتبطة ببوابات المدينة ومجموعة ثقافية محددة، يمكن أن تكون هذه المجموعة عشيرة سواحيلية من مدينة أخرى أو مجتمع واحد من التجار العرب أو الهنود^(١٠).

وبهذا لم تكن هذه المساجد مجرد أماكن للعبادة، بل هي شواهد حجرية حية لبنية المجتمع السواحيلي، فالأحياء في الثقافة السواحيلية كانت تحمل هويات جماعية راسخة مرتبطة بالأصل والانتماء؛ فجاء للتجار العرب القادمين من

الجديد خلال القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، وتقلصت مساحة قاعة صلاته بإضافة جدار فاصل داخلي^(١١)، وهو إجراء يمكننا أن نفسر من خلاله انكماش المدينة السكاني وتراجعها الاقتصادي في تلك الحقبة.

يمتاز هذا المسجد معمارياً ببناء (صحن) تطل عليه سقيفة مرتفعة عن مستوى الأرض، تتركز على أعمدة^(١٢). ويتكون الحرم من أعمدة تحمل سقفاً مسطحاً مصنوعة من الملاط الجيري المرجاني^(١٣).

أما محراب هذا المسجد فيُعد تحفة فنية معمارية بكل المقاييس؛ ثلاث عشرة قطعة بورسلين صيني أزرق وأبيض مُرصعة في العمودين الجانبين وفي جوفه^(١٤)، شظايا كثيرة منها وُجدت عند قاعدته، مما يدل على ثروة من الخزف كانت تُحيط به^(١٥). ويعلو المحراب قوس مدبب، وهو شكل يُعد نمطاً مميزاً لمنطقة شمال الساحل السواحيلي^(١٦). وتكسو الأعمدة المتصلة بجانبه قوالب مرجانية دقيقة تتناوب فيها حليات بارزة بسيطة مع حليات بارزة حليلة بعرض خمسة سنتيمترات. وكان المنبر الحجري ذو الثلاث درجات (انظر: الشكل رقم ٦) الواقف على يمين المحراب هو الإعلان الرسمي أن هذا مسجد جمعة لا مصلّى عادي^(١٧).

(١) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.37.

(٢) Pradines, Stéphane: Le mihrâb swahili, pp.358, 359.

(٣) Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.257.

(٤) Pradines, Stéphane: Le mihrâb swahili, p.364.

(٥) Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.262.

(٦) Pradines, Stéphane: La maison wa-ungwana, du XW au XVle sikle: Mission archeologique française de Gedi, 2002, NYAME AKUMA, No. 58, December 2002, p.15.

(٧) Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.262.

(٨) Ibid, p.262.

(٩) Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.264.

(١٠) Ibid, p.264.

حضر موت، وآخر لتجار هنود من جوجارات، وثالث لعشيرة سواحيلية من مدينة ساحلية أخرى. ومسجد الأروقة الثلاثة ومسجد بين الأسوار كانا يقعان على محور اتصال شرقي-غربي مرتبط بالبوابة الشرقية المحصنة، مندمجين في شبكة أحياء المدينة المتعامدة. أما مسجد القناة الطويلة، فكان يتصل بالمسجد الجامع عبر شارع شمالي-جنوبي. وقد كشف داخل هذا المسجد عن قطعة خزف صيني وطبق إسلامي متعدد الألوان من مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي^(١). وتكشف محاريب هذه المساجد الصغيرة عن نمط مختلف عن محراب الجامع الكبير؛ فهي ذات إطار بارز بلا زخارف مع دعامات أو أعمدة تعلوها تيجان مسطحة، وهو نمط يتشابه مع ما وصفه برادينز بـ«أسلوب مقديشو» الذي ظهر في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، واستمر في شمال المنطقة السواحيلية حتى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي^(٢).

٤) المواد والتقنيات البنائية:

إن المادة الرئيسية التي بُنيت منها مساجد جيدي ومنازلها هي الحجر الجيري المرجاني بنوعيه: «المرجان البحري الحي» الذي استُخدم للزخارف الدقيقة كالمحاريب والمداخل^(٣)، و«الحجر الجيري الأحفوري» للجدران والركائز. وقد أثبتت الحفريات وجود حقول ضخمة من الحجر الجيري المرجاني إلى جنوب الموقع وشرقه، مما يرجح أن معظم مواد البناء كانت تُستخرج من محيط المدينة مباشرةً لا من الساحل البعيد. أما المرجان الحي المستخدم في الزخارف فكان يُجلب من شعاب واتامو ومالندي القريبتين. ويُربط هذا الحجر الجيري بملاط جيدي مُستخلص من حرق المرجان، استخدم في ربط الحجارة وتلييس الجدران وصنع



Alders, Wolfgang: Archaeological Survey and Landscape History at Gede, Kenya. NYAME AKUMA, No. 85, JUNE 2016, p.39

Pradines, Stéphane: Historic Mosques, pp.172, 174

.The black history man, p.28 (١٦)

Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches archéologiques sur le site de Gedi, P.23 (١)

Pradines, Stéphane: Le mihrâb swahili, p.364 (٢)

Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.227; (٣)

Pradines, Stéphane: Le mihrâb swahili, p.363

رابعاً: الأنشطة الاقتصادية في مدينة

جيدي؛

لم يَقم اقتصاد مدينة جيدي على التجارة البعيدة المدى فقط، بل تأسس على منظومة متكاملة من الزراعة والصناعة المحلية والتبادل الإقليمي، وهو ما كشفت عنه الحفائر الأثرية بوضوح، متجاوزة الصورة النمطية للمدينة السواحلية بوصفها مجرد محطة تجارية ساحلية.

يمكننا من خلال تقارير الحفائر الأثرية، الاستدلال على وجود نشاط زراعي؛ فخلافاً للاعتقاد السائد بأن سكان جيدي كانوا تجاراً فقط، أثبتت الأدلة المادية وجود شريحة زراعية فاعلة. فإلى جانب المنازل الحجرية الفخمة للنخبة «وا-أونجوانا» داخل الأسوار، كشفت المسوحات الأثرية عن انتشار مساكن بُنيت من الطين والقش في الأطراف وحتى داخل الأسوار نفسها^(١). سكن هذه المساكن (التي تراوحت أبعادها بين ٥×٦ أمتار و٩×١٤ أمتار) عامة الناس «الوزاليا»^(٢)، الذين اعتمدوا على الزراعة وتربية الماعز والضأن والدجاج، وهو ما تؤكدُه وفرة عظام هذه الحيوانات في الطبقات الأثرية^(٣).

كما أن موقع جيدي على مصب نهر ساباكي القديم ووجود عدد كبير من الآبار^(٤) - حيث تم العثور على آبار دائرية منخفضة الجدران مبنية من الحجر الجيري المرجاني في عدة مناطق في المنطقة الغربية من جيدي^(٥) - يدل على ممارسة أنشطة زراعية في تلك

المنطقة، إضافةً إلى صيد الأسماك واستغلال غابات المانجروف المجاورة بوصفها مناطق صيد وموارد لأخشاب البناء والوقود^(٦). ودلت المكتشفات الأثرية على أن سكان جيدي كانوا يصطادون أنواعاً مختلفة من الأسماك؛ بدليل العثور على بقايا أسماك تشمل سمك البغايا الكبير وسمك الهامور وسمك الإمبراطور. كما عُثر على آثار لرخويات شملت قواقع بحرية ومحار بحري^(٧).

وبالإضافة للزراعة، اشتهر سكان جيدي ببعض الحرف والصناعات التي قامت لتغطية الاحتياجات السكانية المحلية، ولغرض الإفادة من النشاط التجاري المزدهر لمدينتهم، وأكدت تقارير الحفائر على ذلك ولا سيما صناعة الخزفيات المحلية، فلم تكف جيدي بالاستيراد، بل امتلكت صناعة فخارية محلية متطورة ومميزة، ولذلك لم تستورد من الخزف سوى ٥٪ فقط من مجموع استهلاكها وتجارتها. ومن أبرز أنواع الخزفيات المصنعة محلياً: الخزف المحرز بالمثلثات، وهي قدور ذات حواف زُينت بحزوز غائرة تشكل أشكالاً مثلثة أو بآثار أظافر، استُخدمت كأوان للطبخ والتخزين اليومي^(٨). كما صُنِع في جيدي الخزف المحلي «المُخَطَط»، وهو خزف محلي فاخر يعود للقرنين (٥-٦هـ/١١-١٢م)، يتميز بطبقة حمراء لامعة مزينة بخطوط متوازية محفورة، مما يدل على وجود تقليد فخاري متقن يضاهي المستورد في الجودة، لكنه يظل إقليمياً في نمطه. وصنع حرفيو جيدي كذلك الخزف الأسود أو البني الذي يعود لنفس الفترة الزمنية، وهو خزف خشن الصنع لكنه غني بالزخارف^(٩).

(١) Pradines, Stéphane: La maison wa-ungwana, p.13.

(٢) Bitu, Caesar and Forsythe, Wes: An Outport for Gedi? Archaeological Survey in Mida Creek, Kenya, Heritage, Vol.6, 2023, p.7370.

(٣) Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches archéologiques sur le site de Gedi, p.25.

(٤) Bitu, Caesar and Forsythe, Wes: Op.cit, p.7376; Alders, Wolfgang: Op.cit, p.36.

(٥) Alders, Wolfgang: Op.cit, p.38.

(٦) Ibid, P.40.

(٧) Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches archéologiques sur le site de Gedi, p.25.

(٨) Ibid, p.25.

(٩) Pradines, Stéphane: La maison wa-ungwana, p.17; Freeman-Grenville, G.S.P: The medieval history of the Coast of Tanganyika with special reference to recent archaeological discoveries,

وتبرهن هذه المكتشفات على أن جيدي كانت مدينة منتجة، تمتلك قدراً من الاكتفاء الذاتي، ولم تكن مجرد سوق مستهلكة.

ومن أبرز جوانب النشاط الاقتصادي لجيدي تلك الصلات التجارية المزدهرة عبر المحيط الهندي؛ فلو أردنا أن نختار شاهداً مادياً واحداً يروي قصة جيدي التجارية والحضارية بأكملها، لاخترنا الخزف. فمن ٥٨٠ قطعة خزف صيني درستها جامعة بكين في الموقع وحدها، تمتد الأزمنة من أسرة سونج الجنوبية (٥٢١-٦٧٧هـ/١١٢٧-١٢٧٩م) حتى أواخر أسرة مينج (٧٧٠-١٠٥٣هـ/١٣٦٨-١٦٤٤م)^(١)، أي من القرن السادس حتى الحادي عشر الهجري/ الثاني عشر إلى السابع عشر الميلادي، وهو تسلسل زمني يتطابق بدقة لافتة مع فترة احتلال المدينة كلها.

في القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ظهرت أوائل الخزفيات المستوردة متمثلة في خزف تشينجباي الصيني الأبيض المزرق وفق إحصائيات الحفريات^(٢)، إلى جانب الأواني اليمينية السوداء والصفراء والطاسات الكاشانية الفارسية^(٣). وهذا المزيج يُصور جيدي في بداياتها كطرف في شبكة تجارية إقليمية تربط شرقي إفريقيا بالخليج العربي وبلاد فارس والهند والصين. وفي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي تدفق سيلادون لونغتشوان الأخضر الصيني بغزارة، متزامناً مع عصر أسرة يوان (٦٧٧-٧٧٠هـ/١٢٧٩-١٣٦٨م) وكان أكثر أشكاله انتشاراً الأطباق الكبيرة وأطباق الحساء والأوعية

المزينة بنقوش بارزة^(٤). وكشف الحفر في جيدي عن كأس سيلادون أسطواني نادر ذي أخاديد داخلية واسعة، مزين برسومات على شكل بتلات اللوتس، لم يُعثر على نظيره في العالم الإسلامي كله إلا في أربع عينات بالفسطاط المصري وواحدة في قلعة البحرين وأخرى في خونج ببلاد فارس^(٥).

ثم في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي زادت الواردات من البورسلين الأزرق والأبيض زيادة ملحوظة لتسيطر على واردات المدينة؛ حتى هجرها في مطلع القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي^(٦). ويُعدّ هذا البورسلين الأكثر طلباً في العالم الإسلامي في تلك الحقبة، تزين جدرانها الداخلية والخارجية بطلاء مع زخارف نباتية ومناظر طبيعية وحيوانات. والشاهد الأبلغ على مكانة هذا الخزف في وجدان أهل جيدي هو استخدامه كعنصر جمالي وديني يُثبّت في محراب المسجد الجامع الكبير^(٧). وفي أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر الميلادي ظهر خزف سواتو Swatow القادم من جنوب الصين، وقطع فارسية وأوان من كونج القريبة من هرمز، وهي مواد وُجدت في منطقة النفايات الجنوبية الغربية من الموقع، مما يؤكد أن المدينة كانت تتاجر حتى في لحظاتها الأخيرة^(٨).

غير أن ما يوازن هذا الانبهار بالمستورد هو حقيقة إحصائية مهمة كشفت عنها حفريات جيدي؛ فالخزف

(٤) Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches archéologiques sur le site de Gedi, p.23.

(٥) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.39.

(٦) The black history man, p.23; Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.262; Pradines, Stéphane: Le mihrâb swahili, p.364.

(٧) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.39.

(٨) Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches archéologiques sur le site de Gedi, p.25.

Berlin, 1962, p.11.

(١) Yan, Liu, Dashu, Qin and Kiriama, Herman: The Chinese porcelains unearthed at Gedi ruins in coast province, Kenya, "Winu" Magazine (Cultural Heritage), 2012, p.37.

(٢) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.39.

(٣) Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.229.

مع اليمن لفترة طويلة.

كما تُعدُّ عُمان من أبرز الشركاء التجاريين لجيدي، إذ سجلت تقارير الحفائر وجود خزف «بهلاء» العُماني^(٥)، وهو نمط خزفي مميز يؤكد التبادل التجاري المباشر مع الساحل العُماني، الذي كان بدوره بوابة إلى الخليج العربي.

ارتبطت جيدي أيضاً بصلات تجارية مع مصر؛ فقد وردت إشارات محددة إلى وجود خزف مصري، ولا سيما في سياقات المقابر والمساجد^(٦)، مما يدل على أن طرق التجارة البحرية ربطت جيدي مباشرة بمصر عبر البحر الأحمر^(٧).

كما اتصلت جيدي تجارياً ببلاد فارس، حيث تم اكتشاف طاسة من مدينة «كاشان» تعود للنصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي^(٨)، وعُثر على قوارير مستوردة من منطقة «ميناب» في مملكة هرمز^(٩)، مما يشير إلى صلات قوية مع مراكز الصناعة الفارسية. وتُعدُّ الصين المورد الأهم للخزف الفاخر (انظر: الشكل رقم ٨) (السيلادون، والبورسلين الأزرق والأبيض، وخزف سواتو)^(١٠)، ووصلت كمياته

المستورد لا يمثل سوى أقل من خمسة بالمائة من إجمالي الخزف المستخرج من جيدي^(١١)، والغالبية العظمى هي إنتاج إفريقي محلي^(١٢). وهذا يُقدِّم جيدي كحضارة حقيقية تُنتج وتستهلك محلياً، وتستورد الفاخر للإعلان عن مكانتها ولتزيين مبانيها الدينية، لا مجرد محطة تجارية تعيش على ما يعبر منها. والمفارقة الجديرة بالتأمل أن الخزف الصيني وُجد بكميات تضاهي ضعفي ما وُجد من الخزف العربي^(١٣)، ويُعدُّ هذا دليلاً على الصلة التجارية القوية بين مدينة جيدي والصين عبر طرق المحيط الهندي، وأن البورسلين الصيني بجودته الاستثنائية وزخارفه الباهرة وألوانه اللافتة استحوذ على إعجاب سكان الساحل الشرقي لإفريقيا وطلبهم، وكان سلعة مرغوبة بذاتها. يُضاف إلى هذا أن الصين كانت تُنتج هذا الخزف بكميات صناعية ضخمة وتُصدِّره إلى أسواق المحيط الهندي.

ورغم قلة النسبة المئوية للخزف المستورد؛ فإن تنوع مصادره يكشف عن شبكة تجارية واسعة ومعقدة تبرز الصلات التجارية لمدينة جيدي التي كانت طرفاً فاعلاً في هذه الشبكة. فتدلنا تقارير الحفائر عن وجود عدد من الشركاء التجاريين لجيدي، منها اليمن؛ إذ عُثر في جيدي على خزف مستورد من مدينة حيس اليمنية، وهو خزف ذو طلاء أسود وأصفر يعود إلى الفترة ما بين عامي (٦٤٨-٧٥٠هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٠م)، ومن صادرات حيس إلى جيدي أيضاً بعض الكؤوس المؤرخة بأواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، بالإضافة إلى العثور على أوانٍ مستوردة من مدينة حيس (بساحل تهامة) اليمنية^(١٤)، مما يثبت استمرار العلاقات

chéologiques sur le site de Gedi, p.24

(٥) Ibid, p.24

(٦) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.37

(٧) Pradines, S: Islamization and Urbanization on the Coast of East Africa: the excavations at Gedi, Kenya, Azania, Vol.38, BIEA, Nairobi, 2003, p.180

(٨) Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.229

(٩) Pradines, Stéphane: La maison wa-ungwana, p.17

(١٠) Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches archéologiques sur le site de Gedi, pp.23, 25; Yan, Liu, Dashu, Qin and Kiriam, Herman:

Op.cit pp.37-39

(١١) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.37

(١٢) Bit, Caesar and Forsythe, Wes: Op.cit, pp.7372, 7375, 7377

(١٣) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.39

(١٤) Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches ar-

إلى ضعف كميات الخزف العربي^(١)، مما يعكس هيمنة الطلب على الخزف الصيني في أسواق جيدي.

الشكل رقم (٨): واردات جيدي من الخزف والبورسلين الصيني^(٢)؛



ويرجح في ضوء التقارير الأثرية وجود صلات تجارية بين جيدي والهند؛ ذلك أن سفن التجار الهنود من ولاية جوجارات كانت تنقل البضائع بين المحيط الهندي وساحل شرقي إفريقيا، بالإضافة إلى ما عُثر عليه في موقع جيدي من سلع هندية المنشأ مثل الخزف^(٣)، إلى جانب وجود جالية هندية محتملة سكنت أحد أحياء هذه المدينة^(٤).

وهكذا، لم تكن جيدي محطة معزولة، بل كانت حلقة وصل بين دواخل الساحل الشرقي لإفريقيا والعالم الإسلامي وآسيا، تصدر العاج وصمغ الكوبال والبلور الصخري وتستورد في

المقابل أفخر المنتجات.

خامساً: المجتمع السواحلي في جيدي من خلال المكتشفات الأثرية؛

تبرهن المكتشفات الأثرية في موقع مدينة جيدي أن مجتمع هذه المدينة كان مجتمعاً مركباً من طبقات اجتماعية وجماعات متميزة تعيش في تجاور تفاوتية دقيق. وفهم هذا التنوع الاجتماعي يتطلب قراءة المعطيات الأثرية بصورة أكثر عمقاً وشمولية.

وأولى دلائل هذا التمايز الاجتماعي والطبقي، أنه في قلب المدينة المٌسوّرة كانت المنازل الحجرية حكراً على أفراد الأسر الحاكمة وشريحة «وا-أونجوانا»، أي النبلاء والتجار الأثرياء^(٥). وهذا يعني أن هذه المنازل الحجرية لم تكن مجرد مسكن بل كانت رمز القوة والهوية، بلغة الحضارة السواحلية. لقد تأسست معظم المدن السواحلية بين القرنين الثاني والسابع الهجريين/ الثامن والثالث عشر الميلاديين. وظهرت أول المباني الحجرية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في مدينة شانجا بأرخبيل لامو، وفي أواخر القرن اللاحق الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ظهرت في كلوة وجيدي، لكن هذه التقنية كانت مخصصة في البداية للمساجد، إذ كانت مبنية في أول عهدها من الأخشاب؛ فعندما زار ابن بطوطة (المتوفى عام ٧٩٩هـ/ ١٣٧٧م) مدينة ممبسة (منبسي) في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وصف مساجدها بأنها بُنيت من الخشب^(٦)، وكذلك وصف مدينة كلوة بغلبة البناء من الخشب على مساجدها ومنازلها^(٧). ثم أدى ازدهار التجارة السواحلية إلى إعادة هيكلة كاملة للمدن على الساحل الشرقي،

(١) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.39.

(٢) The black history man, p.23.

(٣) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.37.

(٤) Pradines, Stéphane: Historic Mosques, p.264.

(٥) Pradines, Stéphane: La maison wa-ungwana, p.13.

(٦) رحلة ابن بطوطة، (ج٢، ص١٢٠).

(٧) المصدر نفسه والجزء ٧، ص١٢١.

على أن الوزاليا كانوا يُعدون من سكان المدن لكن دون بلوغ مرتبة الوا-أونجوانا^(٤).

الشكل رقم (٩): صورة منزل حجري مكتشف في جيدي^(٥)؛



وتتجلى الثنائية النبوية للمجتمع السواحيلي في جيدي بوضوح، وفحوى هذه الثنائية: البحر مقابل الأرض، والتجارة مقابل الزراعة، والأغنياء مقابل الفقراء، والمنازل الحجرية مقابل المنازل الطينية^(٦). وهذه الثنائية تتكرر في المدن السواحيلية كلها؛ ففي أرخبيل لامو مثلاً ينقسم الجانب المواجه للبحر إلى منازل حجرية للنخبة والجانب المواجه لداخل الأرخبيل إلى منازل طينية للعامة^(٧).

والحفريات في المنطقتين H٠١٣ و H٠١٤، وكذلك في منزل HO١٥ في موقع الحفائر في جيدي تُضيء هذا المشهد الاجتماعي بتفاصيل حية. فمَنْزل HO١٥ الواقع جنوب شرق المسجد الجامع الكبير يتألف من ثلاثة صفوف متوازية من الغرف مع فناء كبير يدعى «كيويندا» مواجه للشرق^(٨). ولمرافق المراحيض والوضوء

فأصبح البناء بالأحجار ظاهرة مميزة دالة على الثراء، وخصّصت للمساجد وعلية القوم في البداية، وهي ظاهرة واسعة النطاق شوهدت من أرخبيل لامو حتى كلوة^(٩).

ويرجع الفضل في البناء بالأحجار عموماً، وبالأحجار المرجانية على وجه الخصوص في مدن الساحل الشرقي لإفريقيا، إلى المهاجرين من عمان واليمن والأحساء، فقد أسهموا في إحلال الحجر محل الخشب واللبن^(١٠).

وتُعدّ المنازل الحجرية في مدينة جيدي (انظر: الشكل رقم ٩)، وفي جزيرة ديمبيني بجزر القمر، من أقدم الشواهد المعمارية السواحيلية على التمايز الطبقي^(١١)، فإذا كانت المنازل الحجرية حكراً على النبلاء من الوا-أونجوانا؛ فإن عامة الناس الـ«وزاليا» كانوا يسكنون منازل الطين والقش في أطراف المدينة، غير أن الأبحاث الأثرية الحديثة أثبتت وجود مساكن طينية حتى داخل أسوار جيدي نفسها، مما يدل

(١) Horton, M.: Primitive Islam and architecture in East Africa, Muqarnas, Vol.8, 1991, pp.112-113; Pradines, Stéphane: La maison wa-ungwana, p.13.

محمد جاب الله علي: أرخبيل لامو خلال القرون الستة الأولى للهجرة دراسة تاريخية في ضوء الأدلة الأثرية، مجلة الدراسات الأفريقية، كلية الدراسات الأفريقية العليا، جامعة القاهرة، المجلد ٤٦، العدد ١، يناير ٢٠٢٤، ص ٦٥.

(٢) بطل شعبان محمد: مرجع سابق؛ بشار الملاح: تاريخ الإسلام في أفريقيا، دار الفكر، المملكة الأردنية، ٢٠١٤، ص (١٣٨، ١٣٩).

(٣) Breen, Colin and Lanep, Paul J.: Archaeological approaches to East Africa's changing seascapes, World Archaeology, Vol.35, No.3, Dec., 2003, p.475; Pauly, Martial: Acoua-Agnala M'kiri (Mayotte - 976) Archéologie d'une localité médiévale (11e- 15e siècles EC), entre Afrique et Madagascar, Nyame Akuma, No. 80, December 2013, pp.84-86.

بطل شعبان محمد: مرجع سابق، ص ٢١٩.

(٤) Pradines, Stéphane: La maison wa-ungwana, p.13.

(٥) The black history man, p.30.

(٦) Pradines, Stéphane: La maison wa-ungwana, p.13.

(٧) Pradines, Stéphane: La maison wa-ungwana, p.13.

(٨) Ibid, p.13.

الأطراف بنظام تجاري عالمي مُوحد لا مكان كبير فيه للموانئ الصغيرة والمدن الداخلية^(٤). يُضاف إلى هذا، الهيمنة السياسية المتنامية لمدينة ممبسة التي ضيّقت هامش الاستقلالية على مدن الساحل المجاورة، ومنها جيدي. ومما زاد الطين بلة عامل أمني وعسكري خارجي، يتمثل في غارات قبائل الأورومو الرعوية القادمة من الشمال والذي مثل عاملاً آخر عَجَلَ بانتهاء المدينة^(٥). وأخيراً يُقدّم برادينز سبباً اقتصادياً محتملاً وهو تقدم الرمال ونضوب الآبار اللذين يرجح أنهما كانا من جملة الأسباب التي أدت لاندثار المدينة^(٦).

والشاهد المادي الأبلغ على هذا الاحتضار التدريجي هو السور الداخلي الثاني الذي شُيد في مراحل متأخرة بين منتصف القرن العاشر إلى أوائل القرن الحادي عشر الهجري/ منتصف القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلادي. فلم يُبن هذا السور بعناية المؤسسين الأوائل وطموحهم، بل بُني ببدائية واضحة باستخدام عناصر معمارية منقولة من مباني أقدم كانت قائمة خارج مساره. وهذه الممارسة (إعادة التدوير الاضطراري للحجر) تُفسر ندرة البقايا الحجرية بين السورين وتُصور بجلاء أن المدينة لم تعد تملك الطاقة البشرية ولا الموارد المادية للبناء باستخدام حجارة

في هذا المنزل أهمية اجتماعية تتجاوز الوظيفة الصحية؛ إذ كان وجودها علامة على المدنية والتحضّر في المجتمع السواحلي. وفي قاع بئر المراحيض الذي فُسرغ على عمق يزيد عن ستة أمتار وجدت مواد أثرية متنوعة: قطع عاج وخزف وزجاج، وقارورة فارسية تُشير إلى علاقة تجارية بمملكة هرمز في الخليج وتبرهن على حالة واضحة من الثراء والتمايز الاجتماعي^(١).

سادساً: تراجع مدينة جيدي وهجرها:

لا تسقط المدن فجأة، ولم تكن جيدي استثناءً من هذه القاعدة. فبين منتصف القرن العاشر إلى أوائل القرن الحادي عشر الهجري/ منتصف القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلادي؛ تراكمت عوامل انهيار متشابكة لا يمكن فصل أحدها عن الآخر. ويُعدّ العامل البيئي (الإيكولوجي) الأكثر حسماً والأعمق تأثيراً؛ ويتمثل هذا العامل في جفاف فرع نهر ساباكي الذي كان يربط جيدي بخليج ميذا ومنه بالمحيط الهندي. حين جف هذا الممر المائي فقدت المدينة شريانها الحيوي دفعة واحدة، وانهارت تجارتها، وانخفض مستوى الشبكة الهيدرولوجية الداخلية، واختفت آبار كثيرة^(٢).

تزامن هذا مع ضغط اقتصادي خارجي متصاعد؛ إذ أعاد الوجود البرتغالي في المحيط الهندي منذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي^(٣)، رسم خرائط التجارة البحرية باستعاذته عن الشبكات الإقليمية المتعددة

(٤) Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches archéologiques sur le site de Gedi, p.24

(٥) Kirkman, J: The Arab City of Gedi: Excavations at the Great Mosque, Architecture and Finds, Oxford university press, 1954, P.XIV; Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.37

وندل فيليب: عمان تاريخ له جذور، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠١٢، ص ١٠٤.

(٦) Pradines, Stéphane: Le mihrāb swahili, pp.358, 359

(١) Ibid, p.15

(٢) Pradines, Stéphane: L'Afrique Noire et la Chine, p.37

(٣) Ibid, p.37

اللحظات الأخيرة قبل هجر المدينة^(٤)، وأن التجارة في جيدي لم تتوقف فجأة بل خفت ثم اندثرت باندثار المدينة.

وفي مطلع القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي صمت جيدي نهائياً، وبدأت الغابة الاستوائية تلتهم جدرانها، حتى أعاد كل من جيمس كيركمان ثم ستيفن برادينز قراءة آثارها بعد قرون.

خاتمة:

تبين من خلال هذه الورقة أن مدينة جيدي مثلت نموذجاً فريداً من نوعه لفهم ظاهرة التحضر والأثر المحلي الإفريقي والأثر الإسلامي في هذا التحضر في شرقي إفريقيا خلال العصر الإسلامي، وتُجسّد في آن واحد قصة الصعود الحضاري والانحيار التدريجي تحت وطأة عوامل متشابكة. وقد أسفرت تقارير الحفائر الأثرية، التي بدأها جيمس كيركمان، وأعاد ستيفن برادينز قراءتها بعمق وأتبعها بحفائر أخرى، عن نتائج جوهرية يمكن إجمالها فيما يلي:

- كشفت الدراسة عن تسلسل زمني دقيق لنشأة المدينة وتطورها المعماري، حيث يرجع تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، على شكل قرية صغيرة من الأكواخ الطينية قبل أن تتحول تدريجياً إلى مدينة حجرية محصنة. والأهم من ذلك، اكتشاف وجود «تراتب طبقي أفقي»، أي انتقال المركز الحضري من الشمال الشرقي (المدينة القديمة في القرون ٥-٨هـ/ ١١-١٤م) إلى الجنوب الغربي (المدينة الجديدة من القرن ٩هـ/ ١٥م فصاعداً)، مصحوباً ببناء مسجدين

جديدة؛ أضف إلى ذلك أن هذا السور قسم منازل كانت قائمة إلى نصفين، وقضى على مبانٍ مدنية، وسدّ مخارج عديدة، مُعيداً رسم حدود المدينة حول نواة أصغر فأصغر؛ فبعد أن كان السور الأول للمدينة في وقت ازدهارها وغفوانها يحوط على مساحة بلغت ١٨,٢ هكتاراً؛ تقلص السور الثاني ليحيط بمساحة ٧ هكتارات فقط^(١) في دلالة شديدة الوضوح على هذا التراجع الكبير للمدينة، وينبئ بسيرورتها نحو الاندثار. زد على ذلك أن الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا السور ضمت منشأة دفاعية فريدة في التحصينات السواحلية، وهي برج صغير به شُرابة (فتحة) لإطلاق السهام يحمل بصمات التأثير البرتغالي^(٢)، وكأن أهل جيدي في ساعاتهم الأخيرة استعاروا من عدوهم أسلوب دفاعه؛ مما ينم عن التراجع السياسي والعسكري الواضحين.

وإلى الجنوب الغربي من المدينة وُجدت منطقة النفايات التي كشف عنها أحد المجازات الاستكشافية، وضمت كسوراً فخارية مبعثرة وأصدافاً بحرية وعظام حيوانات متراكمة^(٣)، وهي صورة مألوفة للأطراف المهملّة من المدينة التي لم تعد تتوسع بل تتكّمش على مركزها. وقد استمرت بعض المواد التجارية في الوصول إلى منطقة النفايات هذه حتى أواخر عهد المدينة، من خزف سواتو وقطع فارسية وأوانٍ هرمزية، مما يدل على أن التجارة ظلت قائمة حتى

(١) Pradines, Stéphane: La maison wa-ungwana, p.13.

(٢) Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches archéologiques sur le site de Gedi, p.24.

(٣) Bitá, Caesar and Forsythe, Wes: Op.cit, p.7374; Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches archéologiques sur le site de Gedi, p.25.

(٤) Pradines, Stéphane: Nouvelles recherches archéologiques sur le site de Gedi, p.25.

كبيرين مختلفي الاتجاه. هذا التحول المكاني ليس مجرد تطور عمراني، بل يحمل دلالة دينية عميقة؛ فانتقال اتجاه المحراب من الشمال-الشمال الغربي (النمط الشيرازي القديم المرتبط بالشيعية) إلى الاتجاه الصحيح نحو الشمال (النمط السني)، يثبت بالدليل المادي حدوث تحول مذهبي جوهري في مجتمع جيدي، بفعل هجرات سُنّية جديدة قادمة من حضرموت في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

- برهنت الدراسة على إسهام المدينة في إعادة تعريف العلاقة بين النخبة والعامية في المجتمع السواحلي. فالتمايز المعماري بين المنازل الحجرية للنبلاء «الوا-أونجوانا» ومنازل الطين والقش لعامية الناس «الوزاليا» لم يكن فقط تعبيراً عن الطبقة، بل كان هوية حضرية بامتياز، حيث عاش العامة داخل الأسوار أيضاً ولكن دون بلوغ مرتبة الطبقة الأولى. كما أن مساجد الأحياء الستة لم تكن مجرد مواضع للصلاة، بل كانت وثائق حجرية للتنوع العرقي والمذهبي (أحياء للتجار الهنود، وأخرى للعرب الحضارمة، وثالثة لعشائر سواحلية)، مما يجعل جيدي أنموذجاً مثالياً لدراسة بنية المدينة الإسلامية في شرقي إفريقيا.

- أثبتت الدراسة أن مدينة جيدي جسدت نموذجاً اقتصادياً متكاملًا، لم يرقم على التجارة البعيدة فقط، بل على قاعدة زراعية وصناعية محلية قوية. فوجود مساكن الفلاحين والكميات الهائلة من الخزف المحلي (الذي يزيد عن ٩٥٪ من إجمالي الخزف)، إلى جانب تنوع وارداتها من مصر واليمن (حيس/ تهامة) وعمان (بهلاء) وبلاد فارس (هرمز، كاشان) والهند والصين، يجعلها محطة تجارية نابضة بالحياة، وليس مجرد سوق مستهلكة. وقد كان البورسلين

الصيني (السيلادون والأزرق والأبيض) السلعة الأكثر طلباً، لدرجة أنه رُصّعت به محاريب المساجد، والقبور، متحولاً من سلعة تجارية إلى عنصر زخرفي ديني يحمل رمزية المكانة والثروة.

- ناقشت الدراسة انهيار جيدي، ذلك الانهيار الذي يُقدّم درساً تاريخياً في هشاشة المدن التجارية أحياناً؛ إذ لم تتدثر المدينة فجأة، بل تآكلت بفعل عوامل ثلاثة متداخلة: بيئي (جفاف فرع نهر ساباكي واختفاء الآبار)، واقتصادي (الضغط البرتغالي وهيمنة ممبسة وإعادة هيكلة طرق التجارة البحرية)، وعسكري (غارات الأورومو). وقد تجسد هذا الاحتضار في بناء سور داخلي ثانٍ بدائي، أعيد فيه استخدام حجارة المباني القديمة، وقُلص مساحة المدينة قبل أن تتدثر تماماً في مطلع القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.

وختاماً، أثبتت مدينة جيدي أن الحضارة السواحلية لم تكن مجرد هامش عربي أو فارسي على الساحل الإفريقي الشرقي، بل كانت صيغة أصيلة من الحضارة الإسلامية، جمعت بين الإرث المحلي والوافد، وأبدعت في التكيف مع البيئة والتجارة. وما تزال أطلالها، المعلقة متنزهاً وطنياً، تشهد على تلك الحقبة الذهبية، وتدعو لمزيد من البحث لاستكشاف ما يزال يخفيه ثراها تحت الأرض، كل هذا كان دافعاً لإدراج موقع جيدي الأثاري في كينيا بوصفه «موقع تراث عالمي» من قبل منظمة اليونسكو خلال عام ٢٠٢٤م ■